ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص138-147

القبيلة والسلطة في المغرب الفاطمي (تبيان صور التنافر والـمُعاداة)

The tribe and the power in the fatimidMghreb(showing figures of the aversion and the hostilityi.e, types of hostility)

عبد العزيز شاكي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
abdelaziz.chaki@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/05
تاريخ القبول:
2021/06/03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الدولة الفاطمية
- ✓ المغرب
- ✓ الشيعة
- ✓ القبائل البربرية

الملخص:

من التجارب الموحدة لبلاد المغارب التجربة الفاطمية الشيعية، حيث وجد الدعاة الشيعة مناخاً مغاربياً خصباً مستغلين حب المغاربة لآل البيت، ومستفيدين من عامل بعد المجال المغربي عن الخلافة العباسية في المشرق، وقد استند الفاطميون في التمكين لمشروعهم بقبيلتي كتامة ثم من بعدها صنهاجة مقابل إشراكهم في الأرزاق والأموال والسلطة، غير أن قبيلة زناتة البربرية لم تقبل بالوضع الجديد، فقد ظل المشهد العام للعلاقة الفاطمية الزناتية تسوده حالة من الاستقطاب الدائم ويشهد ضروبا من التوتر والعداء وانقطاع حبل المودة والمهادنة، فدخلت قبيلة زناتة في صراع مستدام مع الدولة الفاطمية، ودعمت الثائرين ضدها .

Article info

Received:
05/05/2021
Accepted:
03/06/2021

Key words:
- ✓Fatimid State
- ✓ Maghreb
- ✓ Zenata
- ✓ the barbarian tribe

Abstract:

The shiite Fatimid State is one of the countries that unified the Maghreb. The shiite layreadersrecognised that the maghreban people love the prophete family ; sot the yused this advantage to spread their thoughts and to establish their new State particularly so far from the Abassid one. They have been supported by bothe Kutama and Sanhaja tribe swithwhich they shared power and money. Although, the barbarian tribe – Zenata – refused the new situation ; as a result the Fatimid were not in good termswith Zenata tribe. They knew bad relationships full of hostility and lack of truce. Finally, Zenata tribe engaged in a long-term conflict with the Fatimid State and mobilised all rebels against this later.

مقدمة

عرف الغرب الإسلامي عدة تجارب سُلطوية مختلفة شكلت كيانات سياسية، شمل البعض منها أجزاء من بلاد المغرب بينما شكلت أخرى تجارب وحدوية كانت لها اليد الطولى على السواد الأعظم من بلاد المغرب أو كلها، وكانت هذه الدول مختلفة النحل والمذاهب، ومن بين تلك التجارب الدولة الفاطمية العبيدية التي اتخذت من بلاد المغرب موطناً لتشكيل كيان سياسي بعيد عن سلطة الخلافة في المشرق، غير أن إنشاء هذا الكيان كان بمساعدة قبائل من المغرب حيث قدمت قبيلة كتامة خدمات جليلة للفاطميين خاصة في مرحلة الدعوة وساعدتهم في ترسيخ نفوذهم، ليستند بعدها حكام الفاطميين إلى كبراء قبيلة صنهاجة التي خدمتهم هي الأخرى وثبتت أقدامهم بالمغرب ووقفت إلى جانبهم ضد خصومهم من البربر والثائرين، ولم تكن هذه الخدمات التي قدمتها قبائل البربر للفاطميين في مرحلتي الدعوة والدولة مجانية بل أشرك الفاطميون حلفاءهم في الأموال والأرزاق والمناصب وغيرها، غير أن قبيلة زناتة لم تكن لترضى بالواقع الجديد لذلك دخلت في سجال مستدام مع الفاطميين ودعمت الثائرين على السلطة الشيعية الجديدة، **فكيف وطد الفاطميون أقدامهم بالمغرب في مرحلتي الدعوة والدولة بمساعدة قبائل من البربر؟ وما هي أسباب العداء والتنافر الزناتي الفاطمي؟ وما تجليات هذا العداء وأشكاله؟ وكيف استثمرت قبيلة زناتة خصوم الفاطميين ودعمتهم؟ وما هي أهم وقائع ومحطات الاقتتال الدائر بين الفاطميين وبربر المغرب؟**

1.انتقال الدعوة الفاطمية إلى المغرب

من أجل إنجاح المشروع الشيعي وإقامة كيان سُلطي لهم عكف كبراء الشيعة على غرار ابن حوشب على إرسال الدعاة انطلاقا من بلاد اليمن التي استغلوا فيها عامل الجغرافيا لبعدها عن الخلافة العباسية [1]، ناهيك عن المناخ الخصب الذي يشجع على قَبُولية البربر للمشروع الفاطمي، فقد ذكر الأستاذ موسى لقبال رحمه الله أن تأثير التشيع ظهر مبكرا في بيئة إفريقية، أي قبل ظهور الداعي بوقت طويل، ومن مظاهره تشيع الرجال، ثم انتشار القصص الأدبي الذي يبشر بقرب ظهور دولة المهدي، فضلا عن تنبؤ الشعراء والمنجمين [2].

أرسل ابن حوشب الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب، ثم تكفل الإمام جعفر الصادق بإرسال داعيتين إلى المغرب هما أبو سفيان والحلواني وقال لهما: "**إن المغرب ارض بور فاذهبا فاحرصا حتى يجيء صاحب البذر**" [3] على رواية ابن الأثير، أما تقي الدين المقريزي فقد أورد الرواية بقوله: "**إن المغرب أرض بور فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر**" [4]، فحطّا رحالهما بالمغرب بأرض كتامة [5] سنة (145هـ/ 762م) والتي هي من اشد قبائل البربر بأساً وقوةً وأطولهم باعاً في الملك على حد تعبير ابن خلدون [6].

بدأت الدعوة الشيعية في الانتشار، فقد نزل أبو سفيان بقرية زراعية في ناحية مرماجنّة [7] يقال لها تالا حيث بنى مسجدا وتزوج امَةً واشترى عبدا، وكان له من الفضل والعبادة ما جعل أمره يشتهر ويتبعه كثير من

الناس الذين تشيعوا، أما الحلواني فقد وصل إلى سوجمار [8] فبنى هو الآخر مسجدا وتزوج أمةً واشترى عبدا فاشتهر أمره وتبعته في التشيع خلْقٌ من كتامة [9]، غير أن الدعوة الفاطمية في المغرب عرفت حركية أقوى بوفود الداعية الجديد أبي عبد الله الشيعي مسنودا من الكتاميين الذين استقدموه لبلاد المغرب، حيث ترامى خبر وفاة أبي سفيان والحلواني إلى مسامع ابن حوشب فقال هذا الأخير لأبي عبد الله الشيعي: "**إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادرْ فإنها موطّأة ممهدة لك**" [10] فخرج أبو عبد الله الشيعي بعد أن أمدّه ابن حوشب بالمال، وتوجه رفقة عبد الله بن أبي ملاحف، فلما وصل أبو عبد الله الشيعي إلى مكة سأل عن حجاج كتامة فأرشدوه إليهم فاجتمع بهم دون أن يُفصح عن مقاصده المضمرة، وقد وجدهم يمتدحون أهل البيت فاستحسن ذلك وحدثهم بما لا يعلموه، ثم عرّفوه على كبراء كتامة على شاكلة حُريث الجميلي وموسى بن مكاد، فاظهر لهم التنسك والزهد فازدادوا رغبة في خدمته ثم اصطحبوه حتى نزلوا به أرض كتامة [11] ليبدأ التمكين للمشروع الشيعي الفاطمي بسواعد الكتاميين.

2.قبائل المغرب والتمكين للمشروع الفاطمي

كان لقبيلة كتامة الأثر البالغ في التمكين للمشروع الفاطمي في مستهله بالمغرب، إذ أن كبراء قبيلة كتامة اصطحبوا أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب على شاكلة موسى بن حريث وأبي القاسم الورفجومي ومسعود بن عيسى [12]، فوصل الشيعي أرض المغرب سنة 280هـ وقد كان داهيةً فصيح اللسان [13]، فتبعته أمم من البربر من كتامة وعجيسة وزواوة، بعد أن حدّثهم عن ظهور المهدي مستخدماً السحر والطلاسم والمكيدات وغيرها، فقوِيَ أمره واستقر بمدينة ايكجان [14] دار الهجرة [15].

وبعد أن صار لأبي عبد الله الشيعي من القوة والأنصار ما يستطيع أن ينازل به الخصوم، شرع في مقاتلة الأغالبة سنة 289هـ وزحف على طُبنة ثم هزم الأغالبة في معركة كينونة الحاسمة سنة 292هـ، لتتوالى انتصاراته ويصير المجال الكتامي في قبضته [16] حتى استولى على الأربس في سنة 296هـ، ثم فر زيادة الله آخر حكام الأغالبة إلى مصر فدخل أبو عبد الله الشيعي مدينة رقّادة في رجب 296هـ [17] ، ثم سار أبو عبد الله الشيعي لتحرير عبيد الله المهدي من قبضة بني مدرار في سجلماسة [18] مستولياً في طريقه على مُلك بني رستم في تاهرت ثم ملك بني مدرار في سجلماسة التي مكثوا فيها أربعين يوما ثم رحلوا إلى القيروان فوصلوها سنة 297هـ وبايع أهلها عبيد الله المهدي البيعة العامة وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين [19].

لقد مكّن الكتاميون للمشروع الفاطمي خاصة في مرحلة الدعوة، وهو ما جعل الفاطميون يُقدّمون امتيازات للكتاميين فاقطعوهم ملكيات الأراضي وقلدوهم المناصب والرتب واتسعت أرزاقهم وأموالهم وأجرى عليهم المهدي مع ذلك الصلات واصبغ عليهم العطاء [20]، وقد نقل لنا القاضي النعمان ثناء المعز لدين الله االفاطمي عن قبيلة كتامة لما قدموا إلى القصر لتهنئته بقوله: "**بارك الله فيهم وكثّر أعدادهم ، فلما أسرني بهم وباحتفالهم، وما أحب إليّ أشخاصهم، وازين في عيني مناظرهم، ثم نظر إلي وقال (للقاضي النعمان) أرأيت مثلهم في**

بهائهم وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم، أما إني ربما أقول في نفسي إذا أعجبني ذلك منهم : أن ذلك لفرط محبتي لهم" [21].

من أجل ترسيخ حكم الفاطميين في المغرب وتثبيت أقدامهم والقضاء على خصومهم وجه الفاطميون العبيديون بوصلة مصلحتهم تجاه قبيلة صنهاجة [22] التي هي الأخرى من أهم التشكيلات القبلية الهامة في بلاد المغارب، حيث كان لصنهاجة كبيرُ الدور فيما واجهه الفاطميون من حركات مناوئة خاصة ثورة أبي يزيد الشهير باسم بصاحب الحمار، هذا الأخير الذي وضع خصومه الفاطميين في موقع المستجدي لخدمات الصنهاجيين لدرء هذا الخطر المتزايد المسنود من قبيلة زناتة، وبذلك وجد الفاطميون في الصنهاجيين سندا إضافيا لتوطيد دعائم الحكم الشيعي في بلاد المغرب .

ومن الواضح أن تحول البوصلة الفاطمية لقبيلة صنهاجة لم يكن اعتباطيا فصنهاجة تمثل ثقلا ديمغرافيا على رواية ابن خلدون [23]، إضافة إلى موفور التشابه بين الكتاميين والصنهاجيين، إنْ من حيث موطن العيش الجغرافي، أو التشابه في أنماط السلوك وأعراف المجتمع، ناهيك على انحدارهم من أصل واحد وهو برنس بن بر [24]، زد على ذلك العلاقة الودية بين كتامة وصنهاجة التي لم تشر الاستغرافيا التاريخية إلى وقوع صراع بينهم، غير أن أهم أسباب هذا التقارب هو سعي الفاطميين للاستثمار في العداء التقليدي بين برانس إفريقية وهم كتامة وصنهاجة من جهة والبتر الممثلين في زناتة [25] من جهة أخرى وبذلك يستفيد الفاطميون أيما استفادة من استمرار العداء بين بُتر وبرانس إفريقية .

3. السِّجَال الفاطمي الزناتي

زناتة قبيلة قديمة العهد معروفة العين والأثر مواطنهم كثيرة بالمغرب، فمنهم ببلاد النخيل بين غدامس والسوس، ومنهم بالتلول بجبال طرابلس وإفريقية وجبال الأوراس وأكثرهم بالمغرب الأوسط والأقصى. وهي نسبة إلى شانا بن يحيى الذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام. [26] حيث ذكر هذا النسب ابن حزم بقوله: " **زناتة هو شانا بن يحيى بن صولاّت بن ورتنّاج بن ضري بن سقفو بن جُنْذُواذ بن يملا بن مادغيس بن هوك بن هرسق بن كراد بن مازيغ بن هواك بن هريك بن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام**" [27].

وتعتبر قبيلة زناتة من القبائل الفاعلة في بلاد المغارب، ويُعْزى إليها واسع الدور في هيجان أمم من البربر ضد ولاة أبي أمية [28]، وكذا في تهييج العامة ضد حكم الفاطميين بالمغرب، وقد شكلت قبيلة زناتة خطرا مُستداما على الدولة الفاطمية العبيدية حتى أثناء مرحلة الدعوة ناهيك عن مرحلة الدولة، وقبل الحديث عن معالم هذا العداء يجب إماطة اللثام عن سبب النفور الحاصل بين الزناتيين والفاطميين.

لعل أول مسببات هذا النفور الشّقُّ المذهبي الذي شكل حجر الزاوية، إذ أن الفاطميين من الشيعة الإسماعيلية، بينما تأرجحت ميولات الزناتيين المذهبية بين المذهب الخارجي والمذهب السني وكلاهما على خلاف مع الفاطميين الشيعة [29] ، وهو ما جعل الفاطميين يتوجسون من تسمية الإسماعيلية التي ظلت قائمة إلى هذا الوقت (وقت قيام الدعوة الفاطمية) ويستبدلونها بتسمية الفاطميين وذلك لربط الدولة باسم مرغوب فيه

ومحبوب لدى العوام (فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ) [30]، ناهيك عن العداء الناجم عن اختراق الدعاة الفاطميين لأراضي زناتة واستيلائهم على كثير من الجغرافية الزناتية وهو ما قلص نفوذ قبيلة زناتة [31]، وجعلها تفقد جزءا ليس باليسير من الطرق التجارية، وحتى ما بقي منها لا يسد حاجة أفراد القبيلة وماشيتها، زد على ذلك رغبة الزناتيين في البقاء خارج المظلة الفاطمية العبيدية وهو ما يتيح لهم مزيدا من الحرية وهذا ما تؤكده وقائع التاريخ حيث ظلت قبيلة زناتة تقاوم كل الوافدين إلى منطقة المغرب قبل الفتح الإسلامي، إضافة إلى تباين أنماط المعيشة بين الكتاميين والصنهاجيين أحلاف الفاطميين من جهة وبين الزناتيين من جهة أخرى [32].

إن الصدام الفاطمي الزناتي يرجع إلى فترة الدعوة الفاطمية إذ أرسل أبو عبد الله الشيعي وفدا من أربعة عشر رجلا من كتامة إلى قائده عبيد الله المهدي في سجلماسة، وأثناء عودته اعترضته مجموعة فرسان زناتيين أرسلهم محمد بن خزر الزناتي وقتلوا الوفد الكُتامي قرب طبنة بالزاب، وفتشوا عن الرسالة فلم يعثروا عليها، فقد نقلها أحد الجرحى الناجين من الوفد إلى عامل طُبنة الذي بلغها هو الآخر إلى أبي عبد الله الشيعي الذي كان في باغاية وقتئذ [33].

كما شهد الصراع الزناتي الفاطمي أوجّهُ بعد أن أقدمت قبيلة مغراوة ممثلة في محمد بن خزر الزناتي على قتل مصالة بن حبوس المكناسي والي عبيد الله المهدي على تاهرت في شعبان سنة 312هـ [34] ، فأرسل الفاطميون عسكرهم إلى تاهرت سنة 314هـ فحاصروها دون جدوى، فوصلتهم إمدادات أخرى أرسلها عبيد الله المهدي بقيادة بعض الكتاميين فلما سمع بذلك محمد بن خزر الزناتي خرج عن تاهرت تاركا أخاه عبد الله [35]، الذي اشتبك مع جيوش الفاطميين وهزمهم، حيث يقول عن ذلك ابن عذاري: " **واخرج عبيد الله في أثره موسى بن محمد الكتامي في جماعة من القواد، فلما صاروا بطبنة دخل محمد بن خزر الصحراء وابقي أخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة، فدارت بينه وبين جند الشيعي حرب عظيمة، كان الظفر فيها والغلبة لابن خزر**" [36].

إثر هذه الهزيمة أرسل الفاطميون جيشا آخر بقيادة إسحاق بن خليفة وانضمت إليه قبائل لماية [37] التي تمردت عن الفاطميين والتحقت بالزناتيين، كما وصلت إمدادات أخرى من لَدُن مهدي الفاطميين في المهدية واشتبكوا مع الزناتيين بقيادة محمد بن خزر، وقد كانت الانتصارات حليفة الزناتيين [38]، أما مقتلة الفاطميين فكانت عظيمة، إذ تأثر لذلك عبيد الله المهدي كثيرا [39]، وبذلك خرجت منطقة الزاب عن سيطرة الفاطميين [40].

بعد أن صار للزناتيين اليد الطُّولى على الزاب أرسل عبيد الله المهدي جيوشا لاستعادتها بقيادة ابنه أبا القاسم في صفر 315هـ فتوغلت جيوشهم واشتبكت مع الزناتيين واستعادت الزاب، وواصل توغُّلاته حتى وصل إلى ما وراء تاهرت، ثم قفل راجعا إلى المهدية [41]، وعن ذلك يقول ابن الأثير: "**وفي هذه السنة (يقصد 315هـ) سيّر المهدي العلوي صاحب افريقية ابنه أبا القاسم من المهدية إلى المغرب في جيش كثير في**

صفر ، لسبب محمد بن خزر الزناتي ، وذلك انه ظفر بعسكر من كتامة فقتل منهم خلق كثير فعظم ذلك على المهدي ، فسيّر ولده ، فلما خرج تفرق الأعداء ، وسار حتى وصل إلى ما وراء تاهرت" [42] .

إن توجّس الفاطميين من عودة الزناتيين إلى المجال العبيدي الفاطمي جعلت أبا القاسم بن عبيد الله أثناء عودته إلى المهدية يختط مدينة قرب الزاب تكون درعا واقيا لأي هجمات محتملة للزناتتين، حيث بُنِيت مدينة المسيلة [43] ، علي يد ابن حمدون بأمر من أبي القاسم بن عبيد الله الملقب بالقائم، تلك المدينة التي يصفها صاحب كتاب الاستبصار وهو مؤلف أندلسي مجهول بقوله: "**مدينة المسيلة أقرب بقلعة حماد من بلاد الزاب، وهي في بسيط من الأرض، على نهر كبير يسمى بسُهر، ومنبعه من مدينة الغدير،...أحدثها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي... وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك المعروف بابن الأندلسي، فلم يزل بها أميرا حتى مات في فتنة أبي يزيد وبقى ابنه جعفر أميرا فيها وولي على بلاد الزاب كلها، وهذا جعفر ممدوح محمد بن هاني الأندلسي الشاعر المشهور، له فيه مدائح كثيرة حسان، وكان من أكثر أهل زمانه إحسانا، ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين، تشقها جداول المياه العذبة وكانت مدينة كبيرة على نظر كبير، وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال**" [44] .

في سنة 321هـ أرسل الفاطميون جيشا ناهز عدده العشرين ألفا تحت قيادة الوالي الفاطمي على تاهرت حميد بن يصل المكناسي وتوغل حتى وصل فاس ونصّب عليها حامد بن حمدان الهمذاني وبذلك صارت للفاطميين اليد الطُّولى على كثير من بلاد زناتة [45].

غير أن أهم موطن من مواطن الاحتكاك البليغة بني الزناتيين والفاطميين هي حربهم الواقعة مع أبي يزيد [46] مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار الذي ولد بالسودان من جارية هوارية ونشأ بتوزر ثم احتك بالنكارية أتباع ابن فندين ثم علّم الصبيان القرآن في تاهرت، وأخذ يدعو إلى تكفير الشيعة واستباحة أموالهم ودمائهم ووجد من يتجاوب مع فكره ثم رحل إلى الأوراس[47] وتبعته أمم من البربر وتلقب بشيخ المؤمنين وجاهر بعدائه للفاطميين سنة 332هـ، ودخل إفريقية حتى اضطر الخليفة القائم إلى الفرار من رقّادة وتوجه إلى المهدية ، ثم حاصرت جيوش أبي يزيد باغاية 333هـ ثم استولى على تبسة ومجانة ثم مرماجنة فأهداه رجل منها حمارا أشهبا فلُقّب بصاحب الحمار[48] ثم استولى على الأربس ثم افتتح سبيبة ثم دخل باجة فقتل أطفالها وسبى نسائها، ثم دخل تونس فالقيروان غير أنه هذه المرة انهزمت جيوش أبي يزيد أمام جيوش الفاطميين بقيادة بشرى وقتل من أتباع أبي يزيد ما يناهز الأربعة آلاف نفر، وجيء بالأسرى إلى المهدية فقُتلوا [49]، فاغتاظ أبو يزيد واستولى على رقادة وعاث فيها فسادا 333هـ وحرض أهلها على قتال الفاطميين ثم استولى على سوسة وتوجه إلى معقل الفاطميين بالمهدية التي أمر الخليفة القائم بحفر الخنادق استعدادا للحصار الذي سيطال عاصمته [50] .

في هذا الوقت تدخلت قبيلة صنهاجة على خط المواجهة حيث استنجد الخليفة القائم بزيري بن مناد الصنهاجي قائد قبيلة صنهاجة فدارت الكفة لصالحهم وبدأت الهزائم تلاحق أبا يزيد، وعجز عن اقتحام المهدية

عدة مرات ومات خلقٌ كثير من عسكره، ولما طال الحصار على المهدية أكل أهلها الدواب والميتة، ثم انضم أهل القيروان إلى الفاطميين [51]، وفي هذه الأثناء توفي القائم بالله وخلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور سنة 334هـ [52]، وأبو يزيد لا يزال يحاصر سوسة لكن أهلها خرجوا لقتاله رفقة المنصور بعد أن لحقتهم المُؤن وهزموا أبا يزيد ففرّ إلى القيروان فمنعه أهلها من الدخول إليها، ولحقه المنصور هناك وتبادل الفريقان النصر والهزيمة حتى حلت سنة 335هـ حيث انتصر المنصور نصرا ساحقا في شهر محرم وقتل عشرة آلاف من أتباع أبي يزيد وتعرف هذه المعركة بواقعة يوم الجمعة ففر أبو يزيد إلى باغاية فمنعه أهلها من الدخول إليها فلحقه المنصور هناك وتتبع جيوش أبي يزيد الهاربة من مكان إلى مكان حتى وصل المسيلة فلحقه المنصور[53]، فتوجه إلى بلاد السودان فرفضه أهلها فعاد إلى جبال كتامة وعجيسة حيث انهزم هناك وهو مُثخن بالجراح في سنة 336هـ، فأمر المنصور بقتله وسلخ جلده وحشوه تبنا [54] وقد احتفل المنصور بنصره ببناء مدينة صبرة المعروفة بالمنصورية (بجوار القيروان) سنة 337هـ ثم سكنها وعمرها [55]، وبموت أبي يزيد تكون الدولة الفاطمية [56] قد أزاحت من طريقها خصما شرسا طالما اقضّ مضاجع حكامها وبدّد كثيرا من جهودهم وأموالهم وأرواح جنودهم.

خاتمة

إن المتأمل في العلائق القائمة بين قبائل المغرب وسلطة الفاطميين يلاحظ خضوع هذه العلاقات لعامل المصلحة الصِّرف، فقد كان لقبيلة كتامة الأثر البالغ في التمكين للمشروع الفاطمي في مرحلتي الدعوة والدولة، ليوجه بعدها الفاطميون بوصلة مصلحتهم تلقاء قبيلة صنهاجة للاسترسال في تثبيت أقدامهم في المغربين الأوسط والأقصى مزيحين بذلك كل من تسبب في فلتانٍ أمني أو خروج صريح عن سلطتهم، بينما شكلت قبيلة زناتة مصدر قلق مستدام للفاطميين فناصبوها العداء بالاستعانة بأبناء عمومتهم من الكتاميين والصنهاجيين على حد سواء، والملاحظ أن حالة الاستقطاب والسجال بين الزناتيين والفاطميين تبدأ منذ مرحلة الدعوة لتمتد إلى مرحلة الدولة، وهو ما يحيلنا إلى إدراك مدى استرسال هذا العداء طوال الحضور الفاطمي في أقطار المغارب، غير أن أكبر ثورة دوّخت الفاطميين وشتتت جهودهم وكسرت كبرياءهم هي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار والتي كانت مسنودة من لدن الزناتيين الذين دعموا كل من ناصب العبيديين العداء.

غير أنه يمكن التذكير ببعض نتائج هذا الاقتتال والصراع الماثلة إلى العيان إلى يوم الناس هذا، وهي اضمحلال النِّحْلة الإسماعيلية في أقطار المغارب بعد رحيل الفاطميين إلى المشرق بوقت يسير، إذ نبذت العامة أو السُّلط والدول القائمة بعد الفاطميين المذهب الشيعي الإسماعيلي وأعلنت دخولها في الفلك السني، كما أن أهم تركات هذا السجال بعض مخلفات العمران ممثلة في المدن التي أُنشئت خلال هذا التصارع على شاكلة مدينتي المسيلة وصبرة والتي تشكل أهم المصادر المادية الحية لهذا السّجال.

الهوامش:

(1) القاضي النعمان: **افتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحات الدشراوي، ط 2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص 3؛ الداعي إدريس عماد الدين: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار**، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص59.

(2) موسى لقبال: **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية – منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري 11م** –، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 224.

(3) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 6، ص 450.

(4) تقي الدين المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط 2، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج 1، ص 41.

(5) هم قبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدهم باسا وقوة وأطولهم باعا في الملك عند نسّابة البربر من ولد كِتام بن برنس، ويرجعهم نسابة العرب إلى حمير، وتشعبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه، غير أن أول جمهورهم كان كانوا مُوطّنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية إلى جبل أوراس واهم مجالات تقلبهم قسنطينة وميلة وسطيف وبجاية وجيجل وغيرها. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون – المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** –، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج 6، ص 195.

(6) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 195.

(7) بالفتح ثم السكون، قرية بافريقية بينها وبين الأربس مرحلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج 5، ص 109؛ وبينها وبين مجانة مرحلتان، وهي مدينة قديمة بها عيون سائحة وخيرات كثيرة. الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط 1، مكتبة لبنان، بيروت، 1957، ص 540.

(8) يوردها القاضي النعمان باسم سوجمار. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 29؛ وهي تقع جنوبي شرق قسطيلية. فرحات الدشراوي: **الخلافة الفاطمية بالمغرب – التاريخ السياسي والمؤسسات 296 – 365 هـ / 909 – 975 م** –، ترجمة: حمادي الساحلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 79؛ بينما يوردها المقريزي باسم سوق حماد ويقول بأنها من ارض المغرب. المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 41، هامش 1؛ بينما يوردها ابن خلدون باسم سوف جمار ويكتفي بقوله أنها من أرض كتامة. ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص 41.

(9) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ص 26 – 29؛ فرحات الدشرواي: **الخلافة الفاطمية بالمغرب – التاريخ السياسي والمؤسسات 296 – 365 هـ / 909 – 975 م** –، ترجمة: حمادي الساحلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 79.

(10) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 6، ص 450.

(11) المصدر نفسه، ج 6، ص ص 450 – 451.

(12) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 34؛ الداعي إدريس عماد الدين: المصدر السابق، ص ص 83– 84؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص ص 40 – 42.

(13) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 6، ص 451؛ فرحات الدشراوي: المرجع السابق، ص 85.

(14) منطقة جبلية بين سطيف وقسنطينة، فيها قبائل كتامة، وبها حصن حصين ومعقل منيع، وتمتد عمارة كتامة بهذه الأرض إلى أن تجاور ارض القل وبونة. الحميري: المصدر السابق، ص 71. وهي حاليا تتبع ولاية سطيف الجزائرية بالضبط في بني عزيز.

(15) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 6، ص 451.

(16) من المدن المتساقطة تباعا في يد الشيعي سطيف وطبنة وباغاية وتبسة وقرطاجنة والقصرين وقسنطينة.

(17) للاستزادة عن تفاصيل سيطرة أبي عبد الله الشيعي على سائر بلاد كتامة راجع فرحات الدشراوي: المرجع السابق، ص 99 وما بعدها.

(18) عن توجه أبي عبد الله إلى سجلماسة انظر كذلك ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ليفي بروفنسال وج. كولان، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 1، ص 151 وما بعدها.

(19) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص ص 44 – 47. وقد نظّر القاضي النعمان في كيفية إتباع الأئمة وألّف حول ذلك . للاستزادة يُنظر كتابه: كتاب الهمة في آداب إتباع الأئمة، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت).

(20) رضا بن النية: **صنهاجة المغرب الأوسط – من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80 – 362 هـ / 699 – 973 م)** –، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر)، 2006م، ص ص 76– 77.

(21) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، تحقيق: الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر، بيروت، 1996، ص 245.

(22) يذكر لنا صاحب مفاخر البربر نقلا عن الطبرى أن صنهاجة مشتقة من صنهاج وهو اسم لرجل يدعى صنهاج بن نصيوكان بن مسيور، ويرتقي نسبه إلى يعرب بن قحطان. مؤلف مجهول: مفاخر البربر: **مفاخر البربر**، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط 1، دار أبي رقراق، الرباط، 2005، ص 144؛ ويذكر لنا ابن حزم الأندلسي أن منهم بنو الغليظ رهط أبي عبد الله محمد بن عبد الأعلى الأديب، ومنهم بنو دراج ومنهم بأشونة بنو عبد الوهاب من ولد ميمون بن أبي جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد. ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص ص 501 – 502؛ ويذكر ابن خلدون أن قبيل صنهاجة من أوفر قبائل البربر حتى لقد زعم كثير من الناس أن صنهاجة تشكل ثلث أمم البربر، وهم من ولد صنهاج وهو صناك (وفي نسخة ابن خلدون التونسية اسمه صرهاك)، غير أن العرب زادت في هذا الاسم وحولته إلى صنهاج الذي هو عند نسّابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بر ويرجع أصلهم إلى حمير. ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 201.

(23) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 201. وقد ذكر ابن خلدون ذلك صراحة بقوله في ذات الصفحة " **صنهاجة من أوفر قبائل البربر حتى لقد زعم كثير من الناس أن صنهاجة تشكل ثلث أمم البربر**".

(24) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 195، 201.

(25) رضا بن النية: المرجع السابق، ص 82.

(26) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص ص 3 – 4.

(27) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص 395.

(28) الممثلة في ثورة ميسرة المطغري.

(29) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص 498.

(30) عارف تامر: **تاريخ الإسماعيلية (الدعوة والعقيدة)**، ط 1، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، (د. م)، 1990، ج 1، ص 149.

(31) سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة **والخلافة الفاطمية**، ط 1، شركة سعيد رأفت للطباعة، عين شمس (مصر)، 1986، ص 164 وما بعدها.

(32) رضا بن النية: المرجع السابق، ص ص 79 – 80.

(33) سنوسي يوسف إبراهيم: المرجع السابق، ص 164.

(34) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 197.

(35) يُرجِّح الأستاذ سنوسي يوسف إبراهيم أن انسحاب محمد بن خزر الزناتي كان تكتيكيا فقد أراد بذلك استدراج الجيش الفاطمي إلى الصحراء، أو إيقاعه بين جيشي محمد بن خزر الزناتي وأخيه. سنوسي يوسف إبراهيم: المرجع السابق، ص 180.

(36) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 191.

(37) تسكن بالزاب.

(38) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 191.

(39) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 7، ص 36. وعلق على ذلك ابن الأثير في ذات الصفحة بقوله: " **فقتل منهم خلق كثير فعظم ذلك على المهدي**".

(40) سنوسي يوسف إبراهيم: المرجع السابق، 181.

(41) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص191؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج 7، ص 36.

(42) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 7، ص 36.

(43) المصدر السابق، ج 7، ص 36.

(44) مؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص ص 171 – 172. عن بناء هذه المدينة انظر كذلك ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص 130؛ الحميري: المصدر السابق، ص 558؛ أبو عبيد الله البكري: **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص 59.

(45) سنوسي يوسف إبراهيم: المرجع السابق، ص 185.

(46) ويسميه الداعي إدريس عماد الدين الأعور والدجال والمارق. الداعي الداعي إدريس عماد الدين: المصدر السابق، ص 264.

(47) ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج1، ص 216؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4 ص 52.

(48) ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج1، ص ص 216 – 217.

(49) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص ص 52 – 53.

(50) المصدر نفسه، ج 4، ص 53.

(51) المصدر نفسه، ج 4، ص ص 53 – 54.

(52) الداعي إدريس عماد الدين: المصدر السابق، ص 345؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4 ص 55؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 218.

(53) عن أخبار المنصور انظر: ابن حماد الصنهاجي: **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د. ت، ص 59 وما بعدها.

(54) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 4، ص ص 55 – 57.

(55) ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 219.

(56) لاستطلاع العلاقة الفاطمية الزناتية بعد مقتل أبي يزيد. راجع: محمد بن عميرة: **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 222 وما بعدها.